



ضريبة الذل (يا ليت قومي يعلمون) .. بقلم الشهيد سيد قطب



الاثنين 29 أغسطس 2022 01:55 ص

بعض النفوس الضعيفة يخيل إليها أن للكرامة ضريبة باهضة، لا تطاق، فتحتار الذل والمهانة هرباً من هذه التكاليف الثقال، فتعيش عيشة نافحة، رخيصة، مفرغة، قلقة، تخاف من طلها، وتُفرق من صداتها، {يَخْسِبُونَ كُلَّ صِنْحَةٍ عَلَيْهِمْ} [المنافقون:4]، {وَلَيَحْدِثُنَّمْ أَخْرَصَنَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ} [البقرة:96].

هؤلاء الأذلاء يؤدون ضريبة أفح من تكاليف الكرامة، إنهم يؤدون ضريبة الذل كاملة، يؤدونها من نفوسهم، ويؤدونها من أقدارهم، ويؤدونها من سمعتهم، ويؤدونها من اطمئنانهم، وكثيراً ما يؤدونها من دمائهم وأموالهم، وهم لا يشعرون.

وإنهم ليحسسون أنهم ينالون في مقابل الكرامة التي يبذلونها قربى ذوي الجاه والسلطان حين يؤدون إليهم ضريبة الذل وهم صاغرون، ولكن كم من تجربة انكشفت عن نبذ الأذلاء بذ النواة، بأيدي سادتهم الذين عدوهم من دون الله، كم من رجل باع رجولته، ومرغ خديه في الثرى تحت أقدام السادة، وخنع، وضيق، وضعف، وضحى بكل مقومات الحياة الإنسانية، وبكل المقدسات التي عرفتها البشرية، وبكل الأمانات التي ناطها الله به، أو ناطها الناس... ثم في النهاية إذا هو رخيص رخيص، هُنْ هُنْ، حتى على السادة الذين استخدموه كالكلب الذليل، السادة الذين لهث في إثرهم، ووضوئهم بذنبه لهم، ومرغ نفسه في الوحل ليحوز منهم الرضا!

كم من رجل كان يملك أن يكون شريفاً، وأن يكون كريماً، وأن يصون أمانة الله بين يديه، ويحافظ على كرامة الحق، وكرامة الإنسانية، وكان في موقفه هذا مرهوب الجانب، لا يملك له أحد شيئاً، حتى الذين لا يريدون له أن يرعى الأمانة، وأن يحرس الحق، هان على الذين كانوا يهابونه، وذل عند من كانوا يرهبون الحق الذي هو حارسه، ورخص عند من كانوا يحاولون شراءه، رخص حتى أعرضوا عن شرائه، ثم ثُبَّدَ كما ثُبَّدَ الحيفة، وركلتة الأقدام، أقدام الذين كانوا يَعْذُونَه ويُمْنونَه يوم كان له من الحق جاه، ومن الكرامة هيبة، ومن الأمانة ملاد.

كثير هم الذين يَهُوُونَ من القمة إلى السُّقُفِ، لا يرحمهم أحد، ولا يسير في جنائزهم أحد، حتى السادة الذين في سبيلهم هَوَّا من قمة الكرامة إلى سقوف الذل، ومن عزة الحق إلى مهابي الضلال، ومع تكاثر العطارات والتجارب فإننا ما نزال نشهد في كل يوم ضحية، ضحية تؤدي ضريبة الذل كاملة، ضحية تخون الله

والناس، وتضحي بالأمانة وبالكرامة، صحيحة تلهم في إثر السادة، وتلهم في إثر المطعم والمطعم، وتلهم وراء الوعود والسراب... ثم تهوي وترى هنالك في السفح حائنة مهينة، ينطر إليها الناس في شمامنة، وينظر إليها السادة في احتقار.

لقد شاهدْت في عمرِي المحدود -ومازلت أشاهـد- عشرات من الرجال الكبار يحنون الرءوس لغير الواحد القهـار، ويتقـدمون خائعين، يحملون ضرائب الذل، تُبـهـظ كواهـلـهم، وتحـنـي هـامـاتـهمـ، وتـلـوـيـ أـعـنـافـهـمـ، وـثـكـسـ رـؤـوسـهـمـ... ثم يـطـرـؤـونـ كالـكـلـابـ، بـعـدـ أـنـ يـضـعـواـ أـحـمـالـهـمـ، وـيـسـلـمـواـ بـصـنـاعـتـهـمـ، وـيـتـجـرـدـواـ مـنـ الـحـسـنـاتـ فـيـ الدـينـيـاـ وـالـآخـرـةـ، وـيـمـضـونـ بـعـدـ ذـلـكـ فـيـ قـافـلـةـ الرـقـيقـ، لـاـ يـخـسـسـ بـهـمـ أـحـدـ حـتـىـ الـحـلـادـ.

لقد شاهدتهم وفي وسعهم أن يكونوا أحراراً، ولكنهم يختارون العبودية، وفي طاقتهم أن يكونوا أقوياء، ولكنهم يختارون التخاذل، وفي إمكانهم أن يكونوا مرهوبي الجانب، ولكنهم يختارون الجن والمهانة... شاهدتهم يهربون من العزة كي لا تكلفهم درهماً، وهم يؤدون للذل ديناراً أو فنطاراً، شاهدتهم يرتكبون كل كبيرة ليرضوا صاحب جاه أو سلطان، ويستطلوا بجاهه أو سلطانه، وهم يملكون أن يزهّبهم ذوق الجاه والسلطان! لا، بل شاهدت شعوبنا بأسرها تُشْفَقُ من تكاليف الحرية مرة، فتطلّل تؤدي ضرائب العبودية مرات، ضرائب لا تُقاس إليها تكاليف الحرية، ولا تبلغ غُصْنَ مُغْتَسِلِيهَا، وقدِيمًا قالَت اليهود لنبيها {يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَذْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا قَادْهُ أَنْتَ وَرِثْكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} [المائدة: 24] فأدَّتْ ثمن هذا النكول عن تكاليف العزة أربعين سنة تتباهي في الصحراء، تأكلها الرمال، وتذلها الغربة، وتشردُها المخاوف... وما كانت لتؤدي معشار هذا كله ثمناً للعزّة والنصر في عالم الرجال.

إنه لابد من ضربة يؤديها الأفراد، وتؤديها الجماعات، وتؤديها الشعوب، فإذاً أن تؤدي هذه الضربة للعزّة والكرامة والحرية، وإما أن تؤدي للذلة والمهانة والعبودية، والتجارب كلها تنطوي بهذه الحقيقة التي لا مفر منها، ولا فكاك.

فإلى الذين يغرن من تكاليف الحرية، إلى الذين يخشون عاقبة الكرامة، إلى الذين يمرون خدودهم تحت مواطن الأقدام، إلى الذين يخونون أماناتهم، ويخونون كراماتهم، ويخونون إنسانيتهم، ويخونون التضحيات العظيمة التي بذلتها أمتهم لتحرر وتخلصن.

إلى هؤلاء جميعاً أوجه الدعوة أن ينظروا في عبر التاريخ، وفي عبر الواقع الغريب، وأن يتذمروا الأمثلة المتكررة التي تشهد بأن ضرورة الذل أفتح من ضرورة الكرامة، وأن تكاليف الحرية أقل من تكاليف العبودية، وأن الذين يستعدون للموت توهب لهم الحياة، وأن الذين لا يخشون الفقر يرزقون الكفاية، وأن الذين لا يزهبون الجاه والسلطان يزهبون الجاه والسلطان. ولدينا أمثلة كثيرة وقريبة على الأدلة الذين باعوا الضمائر، وخانوا الأمانات، وخدلوا الحق، وتمرغوا في التراب ثم ذهبوا غير مأسوف عليهم من أحد، ملعونين من الله، ملعونين من الناس، وأمثلة كذلك ولو أنها قليلة على الذين يأبون أن يذلوا، ويأبون أن يخونوا، ويأبون أن يبيعوا رحولتهم، وقد عاش من عاش منهم كريماً، ومات من مات منهم كريماً.

